

سابقة الأدب العربي

مشكلة لغوية

٢ - البهاء زهير

للدكتور زكي مبارك

مصرية البهاء

يقول الأستاذ مصطفى باشا عبد الرازق إن البهاء لم يكن طفلاً حين هاجرت أسرته من الحجاز إلى وادي النيل ، لأنه وجد في شعره قصيدتين يذكر فيهما عهده بالحجاز ، الأولى قصيدة :
أُحِنُّ إِلَى عَهْدِ الْمُحَصَّبِ مِنْ مِثْنَى

وعيش به كانت ترف ظلاله

والثانية قصيدة :

سقى الله أرضاً لست أنسى عهدها

ويا طولَ شوقي نحوها وحنيني

ثم يقول بعد إيراد هاتين القصيدتين : « وليست ذكريات طفل هذه الذكريات التي يحنُّ البهاء زهير إلى عهدها بين المقام وزمزم ، فلا بد أن يكون شاعراً جاء إلى قوص فتى مستكلاً »
وأقول إن القصيدتين تشهدان بأن البهاء كانت له ذكريات غرامية بالحجاز ، فإن صدقناه فيما ادعى لنفسه من الصبوات بالبلاد الحجازية ، فمن حقنا أن نسأل كيف خَبَتِ حرارة الذكريات لتلك الصبوات فلم توح إليه غير قصيدتين اثنتين ؟
والأستاذ مصطفى باشا يتحدثنا أن المؤرخين قالوا :

« وانتقل البهاء زهير من قوص بعد أن رُبِّي فيها وقرأ الأدب وسمع الحديث وبرع في النظم والنثر والترسل »

وبمعنى هذا أن البهاء بدأ حياته في قوص وهو في عهد التريب ، وأنه لم يجرى إلى قوص وهو فتى مستكمل الفتوة ، كما حكم سعادة الأستاذ قبل لحظات وهو يدون بحته الطريف يجب أن نتذكر أن الكلام عن الحجاز وذكرياته الغرامية بدعة أدبية شرعها الشريف الرضى ، وأتبعه فيها من تلاه من الشعراء ، فكان من هوى كل شاعر قضى وقتاً بالحجاز أن يقول إن له حجازيات ، كما كان للشريف حجازيات .

لغة البهاء زهير لغة شاعر عريق في المصرية ، ولولا إجماع المؤرخين على أنه ولد بالحجاز لكان من الحكم أن نفترض أنه ولد في قرية مصرية من قرى النوفية ، فكيف نصدق أن أهله حجازيون ؟

لقد رأينا رجالاً نشأوا بالشام أو لبنان ، ثم هاجروا إلى مصر فعاشوا فيها سنين وسنين ، إلى أن استمضوا بحكم القانون ، ومع هذا بقيت ألسنتهم وأخيلتهم شامية أو لبنانية ، فكيف جاز أن يكون هذا الحجازي أعرق في المصرية باللغة والروح والخيال ؟

أنا أرجح أن تكون أسرة البهاء زهير مصرية لا حجازية ، وإن كانت عربية العرق ، وأرجح أنها انتقلت من مصر إلى الحجاز للتجارة ، بدليل أنها لم تنتقل من الحجاز إلا إلى قوص ، وكانت مدينة قوص ملتقى القوافل الواردة من الهند والحبشة واليمن ، والحجاز ، وملتقى الحجاج من الثاربة والمصريين ويمكن أن نقول إن أسرة البهاء هاجرت إلى الحجاز لتنضم إلى جماعة المجاورين ، والمجاور في الاصطلاح القديم هو من يجاور الحرم النبوي ، وبه وصف المجاور للحرم الأزهرى في القاهرة ، أو الحرم الحيدري في النجف . وفي القاهرة مقابر تسمى « قرافة المجاورين » من باب التشريف ، فما انحطت كلمة مجاور إلا في عصور الانحطاط

ويرجح هذا القول أن مصطفى باشا رأى في أحد المخطوطات أن والد البهاء وصف بـ « العارف محمد ، قدس الله روحه » و « العارف » كلمة لم يكن يُنعت بها غير المروفين بالتمسك والتصوف

ولا يقدح في هذا القول ما صار إليه البهاء من الإقبال على المناصب الدنيوية ، فالرأى القالب عند أسلافنا أن طلب الدنيا لا يفض من قيمة التمسك بالدين ، ما دام طالب الدنيا حريصاً على التحلي بمكارم الأخلاق

إن البهاء مصري. اللغة والروح ، مصري « ابن بلد » بلا جدال ، فكيف نجعله من الحجازيين ؟ وهل ينطبع الرجل على لغة بلد وعلى أوهامه وأحلامه وهوى الأصل غريب ؟

وما هو الروح الحجازي في أشعار البهاء لو جعلنا أسرته حجازية الأصل ، وأنها لم تعرف مصر إلا في أواخر القرن السادس ؟

أنا أقدم هذا السؤال ، وإن كان لا يخلو من ضعف ، لأنني أعتقد أن الحجاز لم تكن له قومية عملية في العهد الإسلامي ، فقد صار الملتقى لألوان من اللغات والآداب ، منذ اليوم الذي صار فيه ملتقى لألوان من الأمم والشعوب

وجملة القول أني أرجح أن أسرة البهاء أسرة مصرية أقامت مدة في الحجاز ، ثم رجعت إلى مصر ، ولغة البهاء تؤيد هذا الترجيح ، وقد تظهر في المستقبل أشياء نعرف بها صدق هذا الترجيح

لو عرف المؤرخون أن هذه القضية ستشغل الباحثين بعد أزمان لحدوثنا بالتفصيل عن المنابت الأصلية لدوحة البهاء

زاتية البهاء

البهاء زهير ذاتية واضحة جداً ، ذاتية نفسية وذاتية فنية . ولننظر هذه الأبيات :

أحب من الأشياء ما كان قائماً وما الدُّون إلا من يميل لدون
فأجبر شرب الماء غير مصفوق زلال وأكل اللحم غير محبب
وإن قيل لي هذا رخيص تركته

ولا أرتضى إلا بكل ثمين
فهذه الأبيات ليست من البدائع ، بالقياس إلى ما يتمدح به أكابر الشعراء ، وهي مع ذلك من الطرافة بمكان ، لأنها تصور المصري المتأنق في اختيار الطعوم والمشروبات والملبوس ولننظر قوله في معاتبة الأمير مجد الدين :

فيا نارك أنوى البعيد من النوى إلى أي قوم بمدكم أنيم
ألا إن إقليما نبتت بي داره وإن كثرت الإثراء فيه لعدم
وإن زماناً أجالني صروفه فإولت بغي عنكم لذم
وأعلم أني غلط في فراقكم وأنكم في ذاك مثل وأعظم
فلا طاب لي عنكم مقام بموطن

ولو ضممتني فيه المقام وزمزم
ومثلك لا يأمن على فقد كاتب ولكنه يأمن عليك ويندم
فن ذا الذي تدنيه منك وتصطفى

فيكتب ما توحى إليه ويحكم

ومن ذا الذي ترضيك منه فطانة

تقول فيدري أو تشير فيفهم
وما كل أزهار الرياض أريج وما كل أطياف الفلا تترنم
فهذا عتاب ترى مثله عند التنبي والأرجاني وابن درّاج ،
والمعاني فيه مألوفة ، إن لم نقل مطروقة ، ومع ذلك نجد فيها عذوبة
بهائية زهيرية تشهد بأنها صادرة من شاعر خفيف الروح ،
راقي الأسلوب

وهل رأيتم في تصوير « كاتم السر » وهو ما نسميه اليوم
بالسكرتير أدق من هذين البيتين :

فن ذا الذي تدنيه منك وتصطفى
فيكتب ما توحى إليه ويكتب
ومن ذا الذي ترضيك منه فطانة

تقول فيدري أو تشير فيفهم
هذا هو « السكرتير » المنشود ، وكذلك كان البهاء

وإيمان البهاء بذاتيه إيمان متين ، فهو يثق بنفسه وبقوته
ثقة بصيرة ، لا ثقة عمياء ، ومن شواهد ذلك قوله في مخاطبة
أحد الأمراء :

هذا زهيرك لا زهير مزينة وأفاك هريماً على علانته
دعته وحوليانه ثم استمع زهير عصرك حسن ليلياته
لو أنشدت في آل جفنة أضربوا

عن ذكر حسان وعن جفناته
فهل رأيتم قبل البهاء من يعارض الحوليات بالليليات ؟
هو شاعر الفطرة والطبع ، فن حقه أن ينتظر جود الخاطر
في الليلة القصيرة بما لا يتيسر لغيره في الحول الطويل
ولننظر كيف يتمدح بأخلاقه وأشعاره وهو صادق :

مذ كنت لم تكن الخيانة في المحبة من خلاق
ولقد بكيت وما بكيت من الزياء ولا النفاق
برقيقة الألفاظ تحكي الدمع إلا في الذاق
لم تدري هل نطقت بها أم أفواه أم جرت المساق
لطفت معانيها ورققت والحلاوة في الرقاق
مصرية قد زانها لطفاً بجاورة المراق

مصري ابن بلد

المصريون يسمون الفتى الخلو الفكاهة والدعابة « ابن بلد »

وفي أشعار البهاء كثيرٌ من التعابير البلدية ، وما نظرت
في ديوانه إلا أيقنت أنه « من الناحية بلدنا » وهتفتُ :

يا زرع بلدى عليك يا وعدى

ويضيق المجال عن الإكثار من الشواهد ، والمهم هو أن
ترشد المتسابقين إلى هذا الجانب ، لأنه سيرد حتماً في أسئلة
الامتحان ، لأهميته في الدلالة على الألوان المحلية

قال البهاء :

فيا صاحبي أما على فلا تخف

فما بطمع الراشون في عاشقٍ مثلي
وعبارة « أما على فلا تخف » لا تزال على ألسنة المصريين
« ما تخافش عليه »

وقال :

أنتك ولم تبعد على عاشق مصر

وأولاد البلد يقولون : « مصر لا تبعد على حبيب »

وقال :

سیدی قلبی عندك سیدی أوحشت عبدك

و « قلبی عندك » عبارة بلدية تقولها في كل يوم ، ومثل

عبارة « أوحشت عبدك » فهي تدور على كل لسان ، ومن

« أدوار » الفناء عندنا هذا الدور

ياما انت واحشنى وروحى فيك

وقال :

أين مولای برانى ودموعى فوق خدى

ففي الشطر الثاني عبارة بلدية مألوقة

وقال :

لنا صديق سىء فعله ليس له في الناس من حامد

لو كان في الدنيا له قيمة بمناء بالناقص والزائد

والمصري يقول حين يضجره السوق : « بناقص زائد سايح »

وقال :

سيندم بىدى من يريد قطيعتى

ويذكر قولى والزمان طويل

والخصم عندنا يقول لخصمه : « أنا وانت والزمان طويل » .

وقال :

إياك يدري حديثنا أحد فهم يقولون للحيطان آذان

ففي هذا البيت عبارتان مصريتان لا محتاجان إلى بيان .

وقال :

وكانت بيننا طاق فهنا نحن سدناها

ففي هذا البيت عبارته بلدية صريحة .

وقال :

جاءني منه سلام سلم الله عليه

الله يسلمك .

وقال :

له فصول كلها فضول

يريد أن يقول إنها « فصول باردة » .

وقال :

حاشاك أن ترضى بأن أموت في الحب غلط

كما تقول اليوم : « فلان غلط غلط »

وقد أكثر في شعره من عبارة : « يا ألف مولاي »

ونحن نقول للزائر : « يا ألف مرحب »

وأنا أكتفي بهذه الشواهد ، وأترك للمتسابقين مراجعة

نظائرهما في ديوان البهاء

الشاعر العاشق

يظهر أن البهاء زهير فتن بالجمال فتنة دامية ، فهو عاشق

من الطراز الأول ، ولم يمنعه منصبه في الدولة ولا مركزه في

المجتمع من إعلان هيامه بالجمال ، كأن يقول :

أروح ولي من نشوة الحب هزة

ولست أبالي أن يقال طروب

عجب خليع عاشق مهتك يلدن قلبي كل ذا ويطيب

خلعت عذارى بل لبست خلاعتي

وصرحت حتى لا يقال صريب

وفي لي من أهوى وصرح بالرضا

يموت بغيظ عاذل ورفيق

فلا عيش إلا أن تدار مدامة ولا أهنس إلا أن يزور حبيب

وإني ليدعوني الهوى فأجيئه وإني ليشينى التقي فأنيب

فيا من يحب العفو إني مذنب ولا عفو إلا أن تكون ذنوب

وكان يقول :

لما الله قلباً بات خلوا من الهوى

وعينا على ذكر الهوى ليس ندر